سيمياء المقاومة وكيمياء الحنين
(قراءة في قصيدة الجليل لمريد البرغوثي)

The semiotics of resistance and the chemistry of nostalgia
(A reading of the poem "The Galilee" by Mourid Barghouti)

أ.د فتيحة كحلوش*

ملخص البحث

تتغيا هذه الدراسة مقاربة نص تميم البرغوثي "الجليل" بوصفه أنموذجا حيا لكتابة المقاومة، حيث يمثل "قوة ناعمة" يُضمد صوتها نزيف الألم داخل جسد الإنسان الفلسطيني والعربي، وترُمّم مجازاتُها خدوش الإماهة والتمويه التي يحاول الآخر إلحاقها بالبعد الهووي للإنسان والمكان، وتُطمْئن سرديات المكان فيها ذلك الفلسطيني المقيم في "المؤقت" مُشتّتا بين بقاع العالم المختلفة متضوّرا شوقا إلى نواته المكانية الأولى. وستتمحور ورقتي هذه، حول تتبع كلمة "الجليل" بوصفها علامة سيميائية تشكل مركز الثقل في النص، وباعتبار السيمياء "للظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية ". واستجابة للتحولات السيميائية الدّالة على فعل المقاومة والتي تنطوي عليها لفظة "الجليل" عنْونتُ مباحث الدراسة على النحو الآتي: 1- المقاومة الثقافية وكتابة القوة الناعمة 2- الجليل ليس جغرافيا:الجليل اسم مفرد لمكان متعدد. 3-الجليل سيوف معلقة تنتظر عودة الفارس 4- الجليل جملة طويلة تلمّ شمل النص والمكان.5-الجليل شيخ حكيم ينصح الغازي بالرحيل 6 - الجليل نص يطلق صفارة الإنذار.

الكلمات المفتاحية : سيمياء، المقاومة ،كيمياء ،الحنين، ، قصيدة ،الجليل لمريد البرغوثي.

Abstract

This study aims to analyze Tamim Al-barghouti's text titled "Al-jaleel" as a livig model for resistance writing, where this text represents "soft power" that heals the bleeding pain within the body of the Palastinian and Arab people, and where its metaphors fix the scratches of camououflage that others try to attach to the identity of the human

*جامعة سطيف2 .

and the place, and where the story of the place reassures that Palastinian who lives in the temporary, dispersed across different parts of the world longing for homeland.

My paper will revolve around the world “Al-jaleel” as a semiotic sign that forms the center of gravity in the text. In response to the semiotic transformations that indicate the act of resistance embodied in the world “Al-jaleel”,the research topics were titled as follows:

1-Cultural resistance and writing of soft power.

2-Al-jaleel is not a geography: it is a singular name for several places.

3-Al-jaleel is swords hanging waiting for the return of the knight.

4-Al-jaleel is a long sentence that brings together the text.

5-Al-jaleel is a wise old man advising the enemy to leave.

6-Al-jaleel is a text that sounds the alarm.

Keywords : The semiotics. resistance. nostalgia .poem “The Galilee” Mourid Barghouti.

لم يرث الشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي عن أبيه وأمه (مريد البرغوثي ورضوى عاشوري) الأرض وبيت السكن لكنه ورث عنهما بيت الشعر ومعه حِمْل المقاومة بالكلمة، حتى صارت هذه الأخيرة بالنسبة له وجها من أوجه سير-ذاتية الجغرافيا، إذ لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من "ربح" المكان الذي يشمّه القارئ معبّقا بأحزان الفقد، مترعا بالأشواق والحنين إلى بيت "الأجداد"، متوهجا بالإشارات التاريخية التي تتحول نسقا يُضمر وراءه الكثير من الصمت الذي يقول أكثر مما تقول الكلمة. وبين ذكرى الفقد وحلم الاستعادة تتعدد تيمات النص التي يُحركها هاجس المقاومة بالكلمة، والشاعر في ذلك مقتنع بأن "الشكل الثقافي في المقاومة يطرح أهمية قصوى ليست أبدا أقل قيمة من المقاومة المسلحة ذاتها"(1) وأن الكتابة نفسها هي فعل "عسكري" يُحفّز طاقة التحرر، ويلهب شعلة المكان المسلوب في أعماق صاحبه.

تتغيا هذه الدراسة مقاربة نص تميم البرغوثي "الجليل" بوصفه أنموذجا حيا لكتابة المقاومة، حيث يمثل "قوة ناعمة" يُضمد صوتها نزيف الألم داخل جسد الإنسان

الفلسطيني والعربي، وترُمّم مجازاتُها خدوش الإماهة والتمويه التي يحاول الآخر إلحاقها بالبعد الهووي للإنسان والمكان، وتُطمْئن سرديات المكان فيها ذلك الفلسطيني المقيم في "المؤقت"(*) مُشتّتا بين بقاع العالم المختلفة متضوّرا شوقا إلى نواته المكانية الأولى. وستتمحور ورقتي هذه، حول تتبع كلمة "الجليل" بوصفها علامة سيميائية تشكل مركز الثقل في النص، وباعتبار السيمياء "للظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية "(2). واستجابة للتحولات السيميائية الدّالة على فعل المقاومة والتي تنطوي عليها لفظة "الجليل" عنْونتُ مباحث الدراسة على النحو الآتي: 1- المقاومة الثقافية وكتابة القوة الناعمة 2- الجليل ليس جغرافيا:الجليل اسم مفرد لمكان متعدد. 3-الجليل سيوف معلقة تنتظر عودة الفارس 4- الجليل جملة طويلة تلمّ شمل النص والمكان.5-الجليل شيخ حكيم ينصح الغازي بالرحيل 6 - الجليل نص يطلق صفارة الإنذار.

1- المقاومة الثقافية وكتابة القوة الناعمة:

تعني كلمة مقاومة في لسان العرب المنازلة " تقاوموا في الحرب أي قاوم بعضهم بعضا...ويقال مازلت أقاوم فلانا في هذا الأمر مازلت أنازله"(3) أما في المعنى الاصطلاحي فتتعدد مفاهيم لفظة المقاومة بتعدد السياقات المستعملة فيها وإن تمحورت حول مفهوم متقارب يتلخص في كونها " الكفاح ضد القمع الأجنبي والظالم، والمقاومة من أجل البقاء والكرامة والحق المشروع"(4) والمقاومة من هذا الباب "ليست شهوة في العنف والقتل والاعتداء على الآخر وإنما هي دفع الأذى والقبح والشر والفساد والاحتلال عن الذات الإنسانية ومقارعته بكل السبل المتاحة"(5)

وللمقاومة أشكال متعددة أولها مقاومة النفس وآخرها مقاومة الآخر/ الغازي/العدو. وتتعدد وسائل المقاومة عندما يتعلق الأمر بتحرير الإنسان وأرضه، فهناك المقاومة السياسية والمقاومة العسكرية والمقاومة الثقافية. وتهدف هذه الأخيرة إلى تحقيق تغيير على

(*)

يقول الشاعر الراحل عز الدين المناصرة : "بقيت أعيش ومازلت مؤقتا ابن مؤقت. كل شيء مؤقت كل شيء خاضع للتشبيه. التشبيه يعزيني قليلا لكن أية دالية عنب في المنفى ليست خضراء مثل دوالي كروم الخليل. عنب المنفى مر مثل كأس الخروع" مجلة كنعان ،العدد 114، تموز 2003.

مستوى تفكير ذلك الإنسان الذي يعاني من الاستلاب، وبهذا المعنى"ليست « المقاومة بالكتابة » مجرّد اختراقٍ لغويّ للإكراه والقَسْر، وإنما هي قبل ذلك نيّةُ فِعلٍ، وعَزمٌ على الفعل وخِطّةُ فِعلٍ، رؤيةً، وطُرقَ تَعبيرٍ، وسلوكاً"(6) إنها تحرير للإنسان من الداخل وتفجير لطاقته النفسية والسلوكية وقناعاته السابقة، وعندئذ تتزحزح قدرية الاستعمار وأبدية الهزيمة في أذهان الناس، وتتراجع المعتقدات التي يحاول المستعمِر عادة صياغتها ثقافيا بشأنه وبشأن الآخر المستعمَر، حيث تشتغل المقاومة الثقافية على تغيير الوعي الفكري للأفراد وتحركهم للتصرف بشكل مختلف بل وتحولهم إلى قوة فعلية في المجتمع.ومن هنا يعتقد غالي شكري بأنه"ليس هناك عمل أدبي جاد في تاريخ الإنسان القديم والحديث، يمكنه أن يخلو من هذه السمة البارزة وهي "المقاومة" لأن هذا العمل يفقد عنصرا خطيرا من مكونات وجوده إذا خلا- من أحد وجوهه- من فكرة الصراع بين الإنسان والكون ، سواء تمثل هذا الكون في الوجود الطبيعي أو النسيج البشري"(7) .

وتستخدم المقاومة الثقافية أدوات فنية متعددة مثل الأدب والموسيقى والسينما والإعلام وغيرها من وسائل التأثير على المجتمع ، وتحظى هذه المقاومة بشعبية كبيرة في الحركات الاجتماعية في مختلف أنحاء العالم. فالشعر مثلا "ليس مجرد وسيلة للتعبير عن الهوية الشخصية أو حتى الشعور القومي. الشعر كجزء من المؤسسات الثقافية والوجود التاريخي للإنسان، هو نفسه ساحة كفاح. هذا الكفاح يأخذ مكانا إلى جانب الكفاح السياسي والعسكري اليوم في عديد بلدان العالم الثالث، من تيمور الشرقية بأندونيسيا إلى غاية السلفادور بوسط أمريكا، التي كُيّفت بشكل مأساوي من طرف الاستعمار الغربي الحديث ممثلا بشرق أوروبا و و.م.أ"(8) والشعراء يشبهون " قادة حرب العصابات في حركات المقاومة، فهم يعتبرون أنه من الضروري استعادة تاريخيتهم المصادرة، وإعادة تخصيصها من أجل إعادة بناء نظام تاريخي جديد"(9)

وإذا عدنا إلى الأدب العربي يمكن وصفه دون تحفظ بأنه أدب مقاوم حيث زخر منذ مدة طويلة بموضوعات الصراع والحرية والنضال الوطني وما إلى ذلك من قضايا المقاومة التي لم تكن خيارا ولا فعلا شاردا بل كانت ضرورة وردّة فعل طبيعية على تاريخ من القهر، وهو ما دفع عزمي بشارة إلى القول:"لاشك في أن المقاومة كحركة إنسانية هي أكثر من فعل ورد فعل فيزيائي، مثل أصلها اللغوي في قانون "لكل فعل رد فعل"، أو في مقاومة

الاحتكاك أو الجاذبية مثلا. فعنف المقاومة بأبسط طبقات التجريد هو فعلا فعل عنف ثانوي، ورد فعل مضاد لفعل عنف الاحتلال الأولي الأصلي"(10)

وما يقال عن الأدب العربي ينطبق على الأدب الفلسطيني الذي ظل ينشد الحرية بما هي حق طبيعي للأفراد والشعوب، ويقاوم بشراسة قهر الآخر ومحاولاته في المحو والتهجير و الإبادة، بل إنه مهّد الطريق للكفاح المادي فليست "المقاومة المسلحة قشرة ، هي ثمرة لزرعة ضاربة جذورها عميقا في الأرض، وإذا كان التحرير ينبع من فوهة البندقية ، فإن البندقية ذاتها تنبع من إرادة التحرير، وإرادة التحرير ليست سوى النتاج الطبيعي والمنطقي والحتمي للمقاومة في معناها الواسع: المقاومة على صعيد الرفض وعلى صعيد التمسك الصلب بالجذور والمواقف. ومثل هذا النوع من المقاومة يتخذ شكله الرائد في العمل السياسي والعمل الثقافي"(11) وقد تجند لهذا العمل الثقافي كل شعراء الأرض المحتلة في الداخل والخارج ، فاكتسى شعرهم مسحة المقاومة على جميع المستويات، وكان لثورة اللغة نفسها دور كبير في تغيير الصورة النمطية للشعر الفلسطيني القديم بل والشعر العربي ككل، فبدا شعراء فلسطين كأنهم يقاومون كل شيء: الاحتلال والتقاليد واللغة المكرورة تحقيقا لوجود لغوي على غير مثال وحلما بوجود فعلي تحت شمس الوطن، ولعل هذا الوضع اللغوي المختلف يتطلب قارئا نوعيا يجيد التنقل في عوالم الاستعارات والانزياحات والرموز من أجل مقاربة قصيدة المقاومة مقاربة ترقى إلى مستوى ما ينطوي عليه النص من حمولات فكرية ودلالات ثقافية.

2-الجليل ليس جغر افيا: الجليل اسم مفرد لمكان متعدد:

تشير علامة "الجليل" التي اتخذها الشاعر تميم البرغوثي عنوانا/اسما لنصه إلى منطقة في شمال فلسطين والجليل جزء من الأرض التي تحتلها إسرائيل لكنها لم ولن تكون مُلكا لها بالنسبة للقصيدة التي تتوخى مقاومة التزوير التاريخي عبر استحضار الجغرافيا والنفاذ من خلالها إلى ماضي الإنسان الفلسطيني وجذوره المكانية:

ويحسبه الناسُ جغرافيا
وهو أرضٌ شمالَ فلسطين
أعني شمالَ جِنينَ تماماً
جنوبيّ لبنانَ رأساً

جنوبيّ غربِ دمشقَ مباشرةٍ
وسط الشام في المهدِ
أو كالهوى في قلوبِ الكرامْ(12)

إن لفظة "يحسب" في القواميس العربية تدل على الظن والاعتقاد واللّايقين، وهو ما يجعل القارئ يتساءل منذ البداية عن هوية "الناس" الذين أشار إليهم الشاعر ليكتشف لاحقا أنهم أولئك الذين لا هوية واضحة لهم.إن الجليل في الحقيقة جغرافيا فعلية وأرض ومكان لكن الشاعر باستعماله للفظة "يحسب" التي تجاوزت كونها علامة لغوية فقط وانطوت على إيماءات أخرى قد انزاح بالقارئ إلى أبعاد دلالية أخرى تتحقق في فضاء الصمت الذي ينمو بالتوازي مع مكونات الصوت داخل النص الشعري.ورغم أن القصيدة تُمعن في التحديد الجغرافي الواقعي للجليل شمالا وجنوبا ووسطا بما يتناسب مع تموقع الجليل على الخريطة، إلا أنها تنفي كونه جغرافيا. والحق أنها –بهذه المفارقة- تنفي كونه "مجرد" جغرافيا شاردة مرّ بها الغزاة فكانت استكشافا خاصا يخول لهم بالتالي امتلاكها، بل إنها جغرافيا معلومة تقع في قلب البلدان العربية وهي ليست إلاّ عربية سُلبت سلبا. وإن كان ذلك حصل فإن الأمر الذي لا يتغير هو أن الجليل ليس مجرد ذكرى مكان بل إنها كيان يتموقع "كالهوى في قلوب الكرام" وقلوب الكرام/ذاكرتهم تلك هي "أداة جمعية بالغة القوة لحفظ الهوية. وهي شيء يمكن حمله ليس فقط عبر الروايات الرسمية والكتب، ولكن أيضا من خلال الذاكرة غير الرسمية. إنها واحدة من الحصون الرئيسية ضد الانمحاء التاريخي. إنها أداة للمقاومة"(13) وفي سيمياء المقاومة وكيمياء الحنين يهجر الجليل /مرج بن عامر طوبوغرافيته وينتصب تاريخا بإحالات دالة تتلاحق مُشكّلة مسارا سرديا يبدأ بوصف شاعرية الجليل ويؤول إلى الرحلة عبر المكان ، ووجها الرحلة هما الماضي والمستقبل، الماضي بما هو تاريخ وهوية خاصة والمستقبل بما هو حلم فلسطيني يأبى الاندثار.

تبدأ الحكاية بالتحية مُجدّدة الوقفة الطللية بوصفها تقليدا شعريا عربيا عريقا و"نواة مكانية" مؤدْلجة على نحو خاص بالنسبة للإنسان العربي:

سلامٌ على زَيْن القرى والحواضرِ
ومَنْ هاجروا منها ومَن لم يُهاجرِ(14)

والوقوف على المكان يستدعي اشتغال الذاكرة، وهو اشتغال لا يثير البكاء كما بالنسبة للشاعر العربي القديم الذي فرضت عليه الطبيعة البحث عن مكان آخر، بل اشتغال مقاومة وتحدٍّ: ليس الجليل طللا أو رسما دارسا أو حكاية منبرية في المناسبات- رغم كل جراح الفقد وأغاني الانكسار- لكنه أرض الشاعر القريبة جدا والتي يستحيل عدها ذكرى إنسان فلسطيني مرّ من هناك :

يَمُرّ بنا اسمُ المرج: مرجِ ابن عامر*
فنطرَبُ لاسم المرج: مرجِ ابنِ عامرِ
ونشرُدُ حتى نحسَبَ المرجَ قصّةً
من القَصَص المحكيّ فوق المنابرِ
ونحسَبُه أرضاً بعيداً منالُها
تضيقُ بها ذرْعاً جِمالُ المُسافر

ولو طفلةٌ من عندنا مسّ شعرَها نسيمٌ
لَمَسّ المرجَ ظِلّ الضفائرِ (15)

يرتبط اسم المرج إذن بالطرب والانتشاء والفرح ، وفي لحظات **الشرود والسهو** فقط يبدو مُنية بعيدة، ولعل الكناية الأخيرة في هذا المقطع الشعري تُقوض شعور الضياع، "فالظل" أوسع من "الظن"، ظل الإنسان في ثقافة المقاومة التي تملأ المواطن الفلسطيني يشمل كل أرضه بما فيها تلك التي يزعم الآخر أنه تمكن منها.ولعل القارئ يلاحظ تأرجح شعر المقاومة غالبا – وليس نص تميم فقط-بين التعبير عن لحظات الضعف التي تنتاب الشاعر المقاوم وبين التمسك بالهدف: هدف صيانة الهوية ثقافيا "فعندما يتعلق الأمر بالهوية السياسية عندما تكون عرضة للتهديد، فإن الثقافة تمثل أداة للمقاومة في مواجهة محاولات

* مرج بن عامر" أو سهل زرعين بالعبرية :**עמק יזרעאל**) «عيمق يزراعيل» أو «يزرعئيل» حسب تسميته في التوراة (العهد القديم) هو مرج واسع بين منطقة الجليل وجبال نابلس في شمال فلسطين التاريخيّة وتحديدًا في لواء الشمال حسب التقسيم الإداري الإسرائيليّ .صورته على شكل مثلث أطرافه :حيفا، جنين وطبريا .يبلغ طوله **40** كم وعرضه المتوسط **19** كم ومساحته الكليَّة **351** كم مربع. نقلا عن ويكيبيديا.

الطمس والإزالة والإقصاء. إن المقاومة شكل من أشكال الذاكرة في مقابل النسيان. وبهذا الفهم أعتقد أن الثقافة تصبح على قدر كبير من الأهمية"(16)كما تصبح الاستعارات والكنايات في النص الشعري تكثيفا لهاجس الدفاع الثقافي وإثارة مقصودة لعواطف القارئ الذي يقاسم الشاعر وضعية الاستلاب. إن هذه الأسباب تسمح بتداخل مستويات خطابية متعددة في نص تميم البرغوثي فينتقل في المقطع الواحد من خطاب الهوية والتاريخ وإسقاط زعم الآخر إلى رصد عذابات البعد عن المكان:

ونسمعُ عن بُعدٍ فطوبى لسامع
على البُعدِ محروم ٍوليس بناظر ِ
وننظرُ عن بُعدٍ فطوبى لناظر ٍ
على البُعدِ محروم ٍوليس بزائر ِ
وإنْ زار يوماً حالَ دون مبيتِه
بمنزلِه جيشٌ كثيرُ العساكر ِ
إذا حاصرتْ جسمَ الجليل ِغزاتُه
فإنّ اسمَهُ قد ردّ كيدَ المُحاصِر ِ
فمن قال بيتي في الجليل ولم يزدْ
فقد قال شِعراً وهو ليس بشاعر (17)

رغم كون الشاعر يقرر حقائق البعد عن المكان والحرمان منه، وهو أمر يشترك فيه كل الفلسطينيين من هاجر منهم ومن لم يهاجر، إلا أنه لا ينفي سعادة السماع عن بعد والنظر من بعيد إلى المكان الأم. إن توق الفلسطيني لمكانه يشبه توق المسلم لجنته، وإن كانت زيارة الجليل محفوفة بالمخاطر في ظل حصار الغزاة فعزاء الفلسطيني هو انتماؤه ، لقد سرق الغازي البيت من واقع الناس لكنه لم يستطع أن يسرقه من قلوبهم وذاكرتهم، وهذا هو الامتلاك الفعلي للمكان لأنه سيرسخ قناعة المقاومة من أجل استعادته إن آجلا أو عاجلا. ولأن "المقاومة الوطنية أوثق ارتباطا بالأرض من أية مقاومة أخرى في تاريخ الأدب ، فإن تجسيد هذه الأرض في العمل الفني –إيماء ورمزا لا إبانة وتقريرا- هو مطلب عادل ومشروع يحقق التوازن بين "قومية" الشكل و"قومية" المضمون إن جاز التعبير"(18) وبهذا المعنى يتحول كل من امتلك بيتا في الجليل أو أي بقعة من فلسطين شاعرا، ليس فقط لجمال

المكان وروعته ، ولكن لأن للشاعر سلطة أخرى هي سلطة الكلمة أو الخطاب ، ومن يمتلك الكلمة حتما سيفوز بالسلطة.من يمتلك قدرة التوحد بالمكان في ليل الغربة والتشريد سيمتلك قدرة استعادته واقعيا.

3-الجليل سيوف معلقة تنتظر الفارس:

يطلق الشاعر العنان لخياله رابطا بين الجليل والسيوف في صيغة الجمع، ناقلا العلامة اللغوية إلى فضاء دلالي آخر، فيقول:

ورُبّ سيوفٍ مُعلّقةٍ في بيوتِ الجليل
علاها غُبارُ التقاعُدِ بعد غبار الخيول
فأمستْ شيوخاً يَقصّونَ سيرَتهم في الهوى والجهادْ
يُعيدونها فتطمئننا لَقطةً في الشريطِ المُعادْ
إلى أننا سوف نلقى الرشادْ
كأنّ السيوفَ الشيوخَ هنا رُقيَةٌ أو ضِمادْ
وفي وسط الشام تغدو السيوفُ رموزَ الوداعة
وتغدو الطيورُ رموزَ العِنادْ
ألستَ ترى الطيرَ إنْ طردوهُ من العُشّ عادْ
وفي وسط الشام طيرٌ تفوّقَ في حِرْفة الهُزْءِ
من كلّ سِلْكٍ حدودٍ وكاشفةٍ للمعادن أو للنوايا
وفي وسط الشام يعلو المَشيبُ رؤوسَ الرزايا
ويخشى الزمانُ نوايا العِبادْ
فيوماً تراهُ بتِرْسٍ ورُمْحٍ
ويوماً على حَذرٍ خافيا
ويحسَبُه الناسُ جغرافيا(19)

يظل "الجليل" في النص وخارج النص رمز المقاومة وتضمينا لكل أسماء المدن الفلسطينية، وقد اختار الشاعر لفظة السيف لأنها لفظة تمتلك سيميائيتها الخاصة بالنسبة للإنسان العربي، إنها رمز الجهاد في التاريخ الإسلامي ورمز البسالة والنصر في العصور اللاحقة.ومع هذا يشير النص ضمنيا إلى شيء من خيانة تاريخ المجد حيث السيوف

التي علاها "غبار التقاعد" هي بلاغيا كناية عن عدم الاستعمال بعد أن كانت هذه السيوف مغطاة بغبار الخيول و المعارك . لقد شاخ السيف في بيت العربي وبدا عجوزا يعيش على قصص الماضي فقط. وإذا كان النص يومئ إلى واقع الهزيمة البائس وراهن الإنسان العربي الذي توقف عن صنع النصر وراح يعيش على أمجاد الماضي، فعزاء الشاعر في الوقت ذاته هو أن قصص الأمجاد المعادة هي زاد الأحفاد ليسترجعوا "رشادهم". هذه القصص هي رقية أو دواء لعلاج جروح المحارب الذي سيعود حتما إلى ساحة الوغى لينتقم لكل هزائمه وخساراته. إنها القصيدة حينما تصدر عن"الطليعة الجسورة التي لا تكف عن السعي للانتقال بمجتمعاتها من الإظلام إلى الاستنارة، و من الجهل إلى العلم، و من التخلف إلى التقدم، كما تعمل على أن تنقل ممارسات كل الذين حولها من الظلم إلى العدل، ومن الباطل إلى الحق، ومن الشر إلى الخير ومن القبح إلى الجمال"(20) وهذا ما يسعى إليه الشاعر تميم البرغوثي وهو واحد من الذين سكنهم الهاجس الوطني فتجندوا للمقاومة وشحذ الهمة بالكلمة المسؤولة. إن اللجوء إلى رمزية الماضي هو وسيلة لمساءلة خنوع الحاضر، والنص- رغم هذا- لا يستسلم، فحكاية السيف الذي عاد إلى غمده هي فصل من فصول الرواية فقط وليست كل الرواية، والوداعة ليست النهاية الحتمية: هناك دوما الطيور العنيدة في مقابل السيوف الوديعة. الطيور تعرف أعشاشها وتعود. إن الإنسان الفلسطيني، الذي يواجه أعتى قوة استعمارية كطائر صغير لا حول ولا قوة له إلا قوة الحنين إلى عشه، يملك من المقومات النفسية والتاريخية ما يجعله يتحدى أسلاك الحدود الشائكة وكل ترسانة الحروب التي أعدها له المستعمِر ليعود متحديا إمكانية تحييد شعوره و"تشييئه" المخطط له من قبل عدوه ، ذلك أن " المستعمَر"الشيء" يصبح إنسانا بقدر ما يحقق من عمل لتحرير ذاته"(21) وهو ما يعيه الفلسطينيون جيدا، ولعل تكرار عبارة "ويحسبه الناس جغرافيا" التي تتضمن الاستنكار من مقطع إلى آخر هو أحد أوجه هذا الوعي، وعي ينطوي على فكرة استحالة نسيان الأرض وفكرة أن ما أُخذ بالقوة سيستعاد بالقوة. إن "الشعب الذي ظلوا يقولون له إنه لا يمكن أن يفهم غير لغة القوة ، يعزم أمره على أن يعبر عن نفسه بلغة القوة. والحق أن المستعمر قد دله منذ زمان طويل على الطريق التي يجب أن تكون طريقه إذا هو أراد أن يتحرر"(22) سيوف الجليل ستشحذ من جديد مادام هناك أجيال تحفظ قصص الأجداد وتقدس أعشاش الطيور، وتؤمن بتقديم أرواحها قربانا لكل ذرة من تراب الوطن، وقد مثل أطفال فلسطين في أكثر من مرة أنموذجا حيا للمقاومة الجريئة التي تتصدى للذبابة بحجر

فقط، وكان للمشهد دائما رمزية فائقة جسدت فكرة القربان تجسيدا حيا تناقلته وسائل الإعلام عبر العالم بدهشة كبيرة.

4- الجليل جملة طويلة تلمّ شمل النص والمكان:

يعتقد المستعمِر دوما أن عزل مدينة أو مدن عن الوطن الأم يُنسِي المستَعمَر تاريخ المدينة الماضي ويحدث قطيعة بينها وبين باقي المدن، غير أن دم الشعوب يظل يسري حارا يتحدّى كل محاولات العزل والتمزيق، وفي الحالة الفلسطينية لا تمحو المستوطنات الجديدة روح المكان ولا تلغي أبدا الذاكرة التاريخية. مهما علت الجدران يظل الإنسان الفلسطيني يعرف كل شبر من خارطة مكانه كما يظل متصلا روحيا بأخيه وجناحه الآخر وإن فرقت بينهما الحدود والمتاريس:

ويبنونَ دون الجليل جداراً
علا .. فاطمأنّوا
وظنوا بأنّ الهواءَ على جانبيْهِ انفصلْ
ولكنْ يمرّ الجليلُ من الجسمِ للجسمِ مثل الحرارةِ عند العناقْ
وينظمُ كلّ المَشاهدِ نظماً كما يجمعُ النحوُ شملَ الجُمَلْ (23)

الجليل هواء حار يسري بين جسمين عاشقين والمتاريس لا تلغي مرور الهواء وهذا يؤدي باستمرار إلى إعادة تشكيل مشاهد الصمود والمقاومة على نحو متناغم، تماما كما يقوم النحو في الكلام مقام الربط والانسجام، والجليل بهذه الصورة يخيّب كل مخططات الغازي.ويمثل صمت القصيدة تنبيها للفلسطينيين من نوايا التشتيت التي يعمل الغازي على تجسيدها باستحضار صور شتى للمكان/الزمان الفلسطيني:

وإنّ الجليلَ له ألفُ معنىً
ومعنى فلسطينَ أجمعِها في الجليل
هو الأرضُ تُحْسَبُ خالية فتفاجِئُ غازيَها بشِعابٍ تسيلْ(24)

إن الجليل بما هو عصي على أن يُختصر معناه يشكل علامة سيميائية تنفتح على دلالات الوطن، فقد اعتقد الغازي أنه أفرغه من معناه وصار أرضا خالية يمكن إعادة غرس ترابها بقيم جديدة ودلالات تاريخية جديدة تناسب الوضع التاريخي الحالي، لكن النص يقاوم

بشراسة ضد هذا الاعتقاد. فما يزال الفلسطيني ممثلا بصوت الشاعر مفعما بمعاني الأرض ودلالات الوطن وقيمه الأخلاقية التي لا يمكن أن تختصر فهي "ألف معنى". إن الغازي دوما وفي كل المناطق التي رزحت تحت الاستعمار "لا يكتفي بالقول إن القيم قد نزحت عن المجتمع المستعمَر، أو أنها لم توجد فيه يوما. وإنما هو يعلن أن السكان الأصليين لا سبيل لنفاذ الأخلاق إلى أنفسهم، وإن القيم لا وجود لها عندهم، بل إنهم إنكار للقيم، أو قل إنهم أعداء للقيم، فالمستعمَر بهذا المعنى هو الشر المطلق. إنه عنصر متلف يحطم كل ما يقابله، عنصر مخرب يشوه كل ما له صلة بالجمال أو الأخلاق، إنه مستودع قوى شيطانية، إنه أداة لقوى عمياء، أداة لا وعي لها ولا سبيل إلى إصلاحها"(25) وكل هذا الزعم من أجل تبرير فعل الاستعمار نفسه وتحقيقا لمشروع النهب الاقتصادي والثقافي عبر محاولة صنع قيم جديدة بل وهوية جديدة ،لكن هيهات فالمستعمَر في ظلّ هذه الممارسات يصير أكثر حساسية لقضايا الخصوصية والهوية الثقافية والمسلمات الدينية. وعبارة "وإنّ الجليلَ له ألفُ معنىً" التي تَستحضِر عبر علامة"الجليل" عناصر الأرض هي كناية بليغة على ذلك:

وإنّي أراهُ ورَبّكَ في المَشهَدِ المُتكرّر في كلّ يومٍ
بزاويةٍ في المنارةِ أو شارعٍ في الخليلْ
وفي الطفلِ يُوقِفُ دبّابةً في الطريق الطويلْ
وفي خِفةِ اليدِ تطوي الفطائرَ تُبْدي توتّرَ صاحبِها من زمانٍ ثقيلْ
وفي سائقِ الأجْرَةِ المتخطّي الحواجزَ مثل الحصان
ووجه الحصان الأجير يَجُرّ حُمُولاً من الفستُق الحلبيّ
وفي الفستُق الحلبيّ يُلخّصُ مُجْمَلَ آرائنا في السياسة(26)

يظهر معنى الانتماء الفلسطيني في الأشياء المرئية وغير المرئية، يظهر في الأشياء اليومية العابرة والبسيطة بدءا من مناظر الطبيعة ووصولا إلى حياة الناس، يظهر في المنارات والشوارع وفي الأكل الشعبي، لا سبيل إذن إلى التّماهي أو النسيان، الطبيعة والمعمار والمعيش اليومي شواهد على إنسان تُمارس عليه كل أنواع المحو الحضاري ومع ذلك يظل عصيا على التعرية والإزالة. والقصيدة تعرض تلك الشواهد في ارتباطها بمقاومة الغازي اليومية: الطفل الأعزل في مواجهة الدّبابة، صانع الفطائر المتوتر من زمن غرّبه في أرضه، السائق الذي يجابه حواجز التفتيش في كل شارع...هذه المعاناة اليومية التي فرضها

المستعمِر بغية النسيان والتشتيت لا تزيد المستَعمَر إلا تذكرا والتحاما بكيانه التاريخي...

5-الجليل شيخ حكيم ينصح الغازي بالرحيل:

مرة أخرى ينقل الشاعر علامة "الجليل" من مضمونها اللغوي ودلالتها المكانية ليربطها بعلامة أخرى من حقل دلالي آخر "الشيخ" ستعطيها تحولا سيميائيا جديدا. إن الشيخ في المرجعية العربية يمثل دوما الحكمة والثبات في الموقف، كما يمثل حلا لكل المعضلات، فإلى أي مدى انزاحت هذه العلامة اللغوية في النص؟ وهل يا ترى فارقت المدلول المرجعي أم عمّقته؟

جليلٌ هو الشيخُ في الصورة الأبديّةِ
بيضاءُ سوداءُ من عام نكبتِهِ
في المَعارضِ والندواتِ وفي بالهِ
وهو لمّا يزلْ صابراً كالجَمَلْ
إذا يحاولُ أن يُفهِمَ القائدَ العسكريّ:
يا بنيّ، إنّ أرضاً يسيرُ على مائها أهلُها
لا تقومُ طويلاً عليها الدُوَلْ (27)

يتداخل عنصر المكان في هذا المقطع بالإنسان، وإذا كنا –على مستوى نحو القواعد- أمام تقديم وتأخير يشي بوصف الشيخ بالجلالة والعظمة، فإننا على مستوى النحو الضمني ، النحو الدّال أمام لعبة استبدال تنقل الجليل من خانة الصفة إلى خانة الاسم، اسم المدينة الفلسطينية المسلوبة من أصحابها. الجليل هو "الشيخ" وليس الصبي ولهذا الوصف سيميائيته، إنه الشاهد العتيق على تاريخ من الصراع والمعاناة في المنطقة منذ عام النكبة-العام الذي تأسست فيه دولة إسرائيل وتشرد فيه مئات الفلسطينين- وحتى اليوم.يتأرجح الجليل (الإنسان الفلسطيني) بين السواد والبياض، بين الحزن والفرح، بين الخيبة والرجاء لكنه يواصل الصمود والمقاومة الثقافية والسياسية، متحملا صابرا إلى أقصى حدود الصبر (كجمل). إنه وضع مثقفي فلسطين ونشطائها حيث "شعر المقاومة، لا يبدأ بالاستخفاف بقيمة الكلمة في المعركة القاسية، بل يدرك دورها ويقدسه، ويعتبره مسؤولية جوهرية لا غنى عنها"(28) وإذ يدرك الفلسطيني ذلك الدور فإنه لا ييأس ويظل

يُذكّر عدوه (ممثلا بالقائد العسكري) بكل ألوان التعبير الممكنة بأن أرضا، تتغلغل في أعماق أهلها بالقدر الذي يتغلغلون فيها بجذور طويلة يستحيل قطعها، هي أرض ليست للتعمير ولن تقوم لدولة العدو والدول المساندة لها قائمة بها. ومثل هذا التوجه في قصيدة البرغوثي يجعلها تنتمي بامتياز إلى "أدب المقاومة الذي تجده في كل أمة من الأمم نتيجة وقوعها تحت ظلم طويل خانق دفع بمشاعرها و أحاسيسها لرفض هذا الظلم والتمرد عليه والانقلاب على مفاهيم الخضوع له والتعامل معه بوصفه أمرا واقعا"(29) إن الأمر في قصيدة "الجليل" يتجاوز هواجس وصف طبيعة المكان الخلّابة والحنين إليه والاغتراب عنه ،إلى المقاومة باللغة من أجله، مقاومة تحفز عواطف الانتماء وتقوي شعلة الشعور بالمسؤولية تجاه بيت الأجداد.

يتحول الشيخ الجليل في هذا المقطع جليلا(مكانا) يمرر رسائل المقاومة وصمود الأرض الفلسطينية أمام الإنسان العابر الحالم بإقناع التاريخ بسردية عمادها الخيال والعنف، ويتحول الجليل، المكان الفلسطيني ذي الطبيعة الساحرة المنهوبة، إلى شيخ طاعن في الحكمة يمرر بدوره رسائل التحدي الإنساني عندما يتعلق الأمر بالأرض/المنبت والأصل.

6-الجليل نص يطلق صفارة الإنذار:

بعد أن لمح الشاعر إلى المقاومة الثقافية والسياسية التي خاضها الفلسطيني بصبر طويل وكان يأمل من ورائها التوصل إلى حل يعيد له ما سلب منه، ينتقل إلى صيغة خطابية جديدة تعكس الرغبة في تصعيد شكل المقاومة بما أن الشكل السابق لم يأت أكله، يقول النص:

جليلٌ هو النَصّ يُنْذِرُ أعداءنا بالزوال وسَوْءِ الوجوه
ويُعلِمُنا أننا سنجوسُ خلالَ الديار
هو الوشمُ في اليدِ يُحبِطُ كلّ مُحاولةٍ للتناسي
وكالواجبِ الأبديّ اللحوحِ يُطالبُنا بالأملْ
وجليلٌ هو الصوتُ يمتدّ بالرَدّةِ الجبليّة فصحىً
تشكّلُها الريحُ دارجةً فتزيدُ فصاحَتها
وتحمّلُها برَذاذٍ خفيفٍ ورعدٍ خفيّ (30)

يستمر الشاعر إذن في ملء لفظة الجليل بالمدلولات غير القاموسية، فيحملها أبعاد المقاومة بشكل صريح هذه المرة. وكما مزج بين الجليل والشيخ مربكا العلاقة بين المبتدأ والخبر في المقطع السابق، هاهو يفعل الشيء نفسه بين النص/القصيدة وبين الجليل (صفة العظمة) والمكان (جليل فلسطين).إن هذه الصيغة الاستبدالية بين المكان بوصفه هندسة معلومة وبين المجرد بوصفه وجودا تخيليا تندرج ضمن ما أسميناه في عمل سابق (بلاغة المكان) إذ أن "ما يحقق شعرية المكان في الواقع هو الطابع الاستعاري الذي تقوم عليه لغة النص المكاني"(31). الجليل بهذه الصورة هو قصيدة أُعدّت لترهب الأعداء وتوقظهم من الوهم، ما إن تُسمع أسماء الأمكنة بلغتها الأصلية حتى تُحدث زلزالا داخل الآخر الذي يعتقد أنه تمكن من المكان والتاريخ، ذلك الزلزال يذكره بأنه الدخيل الغريب فيرعبه رغم كل ما يملكه من ترسانة عسكرية. يتحول المكان وشما وصوتا جبليا قويا يقاوم السكون ويجاري أصوات الرصاص ليعلو عليها.وعندما نقلب القصيدة على وجهها الآخر تتحول هذه الأخيرة بندقية تطارد الأعداء فينقلبون خاسئين وقد سيئت وجوههم. والشاعر هنا يستحضر الآية الكريمة ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾(32) أي " لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريبا ؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر"(33) والشاعر من خلال هذا التداخل النصي يشبه الإسرائيليين بالذين كفروا بربهم.لقد غرهم الغرور وظنوا أنهم هجّروا الإنسان واستوطنوا المكان وما من قادر على زحزحتهم، لكن هذا الغرور سيحطمه نص المقاومة والتاريخ الثقافي للإنسان الفلسطيني، ذلك التاريخ هو بحد ذاته دبابة أو مدفعية ستصيب هدفها إن آجلا أو عاجلا.قصيدة الجليل وكل مدن فلسطين هي صوت الفلسطيني الجليل المرعب الذي يحذر الأعداء ويعلمهم بأنهم سينهارون وسيختفون، ويؤكد للفلسطينيين بأنهم سيتجولون بين الديار في رحلة العودة إلى النواة المكانية. القصيدة بالإضافة إلى هذا هي وشم على يد كل فلسطيني يدحض إمكانية النسيان والتناسي. يريد الشاعر في هذا المقطع التأكيد على دور المقاومة الثقافية في إعادة الوطن المسلوب، حيث يتحول الوطن مرموزا له بالجليل ومستحضرا برموزه التاريخية والطبيعية والثقافية إلى قصيدة صارخة في وجه الآخر الغازي تواجهه كل حين وتفجع أعماقه ، كما يتحول النص الشعري وطنا مثقلا بالمعنى ، يرسخ ذاكرة الامتلاك ويحقق حميمية المكان في

استعادة تخيلية تغذي شعور الاستعادة الفعلية. ذلك الشعور الذي يدفع الصغير والكبير حياته قربانا من أجله لأن الجليل ليس فقط جغرافيا للعيش والاستيطان :

وجليلٌ هو الولدُ الناصريّ الذي يرتقي كلّ يومٍ صليباً
فيحملُهُ، لا أحدّدُ مَنْ منهما يحمِلُ الآنَ صاحبَهُ
ويسيرُ إلى القدس مُستشهِداً حافيا
ويحسَبُهُ الناسُ جغرافيا (34)

في الختام، وبعد تتبع مسارات لفظة "الجليل" في هذا النص،يمكن القول إن هذه اللفظة شكلت علامة سيميائية محورية ، والشاعر حافظ على المدلول المرجعي لهذه العلامة سواء المدلول الجغرافي أو التاريخي ، لكنه شحنها في المقابل بالمعاني الرمزية التي تكرس أهمية الأرض والذاكرة وأهمية آليات المقاومة بالكلمة، فصارت بديلا لكلمة فلسطين نفسها (ومعنى فلسطينَ أجمعِها في الجليل) كما يقول تميم، فالاحتفاء بمكانية الجليل وتاريخها هو رمز الاحتفاء بكل أمكنة الوطن والتاريخ الوطني، واتخاذها رمزا للمقاومة هو تعميم لهذه الأخيرة على كل المدن الفلسطينية. لقد تدرج الشاعر في نصّه في "رفع صوت" المكان الفلسطيني من مقطع إلى آخر، فقد بدأ قصيدته على نحو رومنسي يسترجع فيه جمال المكان والطبيعة الخلابة في الجليل، ثم انتقل إلى مستوى آخر تمهيدي لفعل المقاومة بحديثه عن السيوف المعلقة كرمز لاستراحةٍ/انتكاسةٍ تاريخية ، ثم انتقل لعتبة رمزية أخرى تضع المكان الذي تحول مستوطنة في علاقة وثيقة بالمكان الذي يعيش به الفلسطينيون، مؤكدا على كون الجغرافيا الفلسطينية جملة واحدة لا يستقيم التواصل/الحياة إذا ضاع جزء منها ، فبدا الجليل مبتدأ يحتاج إلى خبر أو فعلا يحتاج إلى فاعل ليكتمل الكلام الذي يجسد في النهاية اكتمال التاريخ ولم شمل الجغرافيا التي شتتها المستعمر، وبعدها ارتفع صوت القصيدة أكثر مُلمّحا إلى المقاومة السياسية والثقافية ممثلة بالشيخ الحكيم ونصائحه، وفي الأخير تحول النص صفارة للإنذار المباشر، وخلص الشاعر إلى بيت القصيد: مواجهة الغازي بالكلمة وبالسيف، حيث الجليل وكل الأرض جليلة جدا وتستلزم مقاومة جليلة أيضا يتفاعل فيها السيف والقلم، العمل الثقافي السياسي والعمل الثوري العسكري.

الهوامش:

1- غسان كنفاني، غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968 ، منشورات الرمال، مؤسسة غسان كنفاني الثقافية، قبرص، ط1،2013، ص9

2- آن إينو وآخرون، السيميائية (الأصول، القواعد، والتاريخ)، ترجمة رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،ط1، 2008، ص35.

3- ابن منظور، لسان العرب،ضبط وتعليق خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث، الجزائر، الجزء العاشر، مادة (قوم)، ط1، 2008، ص ص325-329.

4-مصطفى شريف ، ثقافة السلم،ليتعلم الشباب الحوار، دار هومة، الجزائر2013، ص162.

5- حسين جمعة ، ملامح في الأدب المقاوم-فلسطين أنموذجا ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009، ص16.

6- أدونيس :هل الكتابة مقاومة؟ https://www.aljaml.com 2019/08/25

7- غالي شكري ، أدب المقاومة،دار المعارف، القاهرة ،مصر، ص7

8-BarbaraHarlow ,Resistance Littérature,Routledge Revivals ,1st edition,Electronic version

9-نفسه، الصفحة نفسها.

10- عزمي بشارة ، أن تكون عربيا في أيامنا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،لبنان، ط1،2009، ص ص44-45.

11- غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968 ص9 .

12-تميم البرغوثي ، في القدس ، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 2009، ص13-14

13-إدوارد سعيد، الثقافة والمقاومة (حاوره دايفيد بارساميان،ترجمة علاء الدين أبو زينة، دار الآداب، بيروت،لبنان،ط1، 2006، ص161.

14-تميم البرغوثي، في القدس، ص13.

15-نفسه الصفحة نفسها.

16-إدوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، ص143.

17-تميم البرغوثي، في القدس، ص13 .

18- غالي شكري ، أدب المقاومة، ص390.

19-تميم البرغوتي ، في القدس، ص15-16.

20- جابر عصفور، الاحتفاء بالقيمة، دار المدى للثقافة والنشر، بيروت ، ط1، 2004، ص11.

21-) فرانز فانون ، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث و النشر، القاهرة، مصر، ط2، 2015،ص40

22- فرانزفرانز فانون ، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث و النشر، القاهرة، مصر، ط2، 2015 ص75

23-تميم البرغوثي، في القدس، ص16

24-نفسه، الصفحة نفسها.

25- فانون، معذبو الأرض، ص43-44 .

26-تميم البرغوثي، في القدس،ص16 .
27-نفسه، ص27.
28-غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، ص74.
29- عادل الأسطة ، أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات، مؤسسة فلسطين للثقافة ، سوريا، دمشق، ط2، 2008، ص09.
30- تميم البرغوثي، في القدس، ص17.
31- فتيحة كحلوش، بلاغة المكان(قراءة في مكانية النص الشعري)، دار الانتشار العربي،بيروت، لبنان، ط1 ،2008، ص285.
32- القرآن الكريم،سورة الملك، الآية 27.
33-أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص1900.
34- تميم البرغوثي، في القدس، ص17.